

محاضرة في مغزى الهجرة النبوية

رضا صافي

أيها السادة الكرام :

السلام عليكم وأسعد الله مساءكم :

وبعد . فقد سألت نفسي - حين دعيت الى المشاركة في هذا الحفل الكريم - : لماذا نحتفل باحياء ذكرى الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم؟؟ ورحت أفكر في الجواب الصحيح أو المقنع ، على الأقل . فذكرت أن أساتذتنا في دروس الرياضيات ، يرحمهم الله ، كانوا يلقنونا بعض الطرق في حل المسائل الهندسية ، ومنها أن نفرض المسألة المراد حلها معكوسة ، ثم نبرهن أن العكس يناقض احدى النظريات أو القواعد الهندسية الثابتة ، وبذلك نتوصل الى اثبات صحتها . فألفيتي مسوقاً الى اصطناع تلك الطريقة في الاجابة عن السؤال الذي طرحته على نفسي ، فقلت :

ان الهجرة حادث تاريخي ثابت ، أدت اليه أسباب معينة معروفة ، وتنتج عنه نتائج معينة معروفة أيضاً . فلو افترضنا أن هذه الهجرة لم تقع في التاريخ ، إما لانعدام أسبابها وإما لنجاح الموانع التي قامت للحيلولة دونها ، فما عسى أن يؤثر ذلك في اتجاه التاريخ الاسلامي والعربي حين ذاك؟؟

معروف أن الهجرة النبوية وقعت بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة ، وهذا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يهاجر الا بعد أن ينس يأساً قاطعاً من دفع الأسباب التي

حملته على الهجرة ، وبعد أن استنفد كل وسيلة لهداية سادات قريش وزعمائها فلم يفلح . وعلى هذا فإن افتراض انعدام أسباب الهجرة غير معقول ولا يصح أن يبنى عليه أي بحث ، ولا سيما والرسول نفسه يقرر هذه الحقيقة ، عند خروجه من مكة ، بوقوفه على نشز واتجاهه الى البيت الحرام قائلاً : « والله انك لأحب أرض الله اليّ » ، وانك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك » .

لندع هذا الافتراض ، اذن ، ولنتصور قريشاً نجحت في منعه من الهجرة ، بجبسه أو قتله ، فماذا كانت تكون النتائج يا ترى ؟؟

أما في مكة ، فقد كان عدد المسلمين من القلة بحيث لم يكن عسيراً على قريش أن تقضي عليهم بفتنة من تستطيع فتنته وإبادة من يؤثر الاستمساك بدينه والحرص على عقيدته . وأما في يثرب فقد كان عددهم أقل من أن يستطيع الثبات أمام مكر اليهود وكيد الخصوم من قومهم الذين لم يدخل الايمان قلوبهم بل هم نافقوا نفاقاً حتى بعد هجرة الرسول وبعد أن قويت شوكة الاسلام في بلدهم . ومن هذا نستنتج أن اخفاق الهجرة كان معناه القضاء على الاسلام في مهده ، واذا شئنا أن لا نكون مغالين في حكمنا ، قلنا : ان الدعوة التي جاء بها محمد عليه السلام وسلخ ثلاثة عشر عاماً في بثها ونشرها في مكة ، ثم في القاء شعاع منها على مدينة يثرب ، كان لا بد لها من أن تترك بعض الأثر في تلك البيئة ، ولكنه أثر محدود وضئيل ومعرض للعبث والتشويه . فالدين لم يكن قد اكتمل ، والتشريع الذي تمّ بعد الهجرة وتنظيم الحياة في كل وجوهها ومظاهرها لم يكن قد بدى بهما حتى تاريخ الهجرة .

فالهجرة ، اذن ، هي التي ثبتت دعائم الإسلام وأتاحت له أن ينتشر في أقطار الأرض ، ويعم الكون من أقصاه الى أقصاه . فكل مسلم في هذا الكون الفسيح مخلص لاسلامه معتز بالانتماء اليه معتبر أنه نعمة من الله بهاعليه ، جدير بأن يذكر أنه لولا الهجرة ما كان مسلماً ولا فاز بهذه النعمة ، وحرى ، بعد ذلك ، أن يعطي ذكراها ما تستحقه من تقديس واعظام .

ولنتصور قريشاً ، مرة أخرى ، نجحت في منع الرسول من الهجرة ، فماذا كانت تكون النتائج بالنسبة للأمة العربية يا ترى ؟؟

ليس من شك في أن ذلك كان يقضي على كل الأحداث التاريخية التي نتجت عن الهجرة، فلا سرايا الرسول كانت تقع ولا غزواته ، ولا عهد الحديدية كان يحدث ولا فتح مكة ، ولا دخول قريش في دين الله كان يتم ولا توحيد الجزيرة العربية . وأخيراً لو أن قريشاً نجحت في منع الرسول من الهجرة لحالت بنجاحها هذا دون ذلك الفتح العربي الباهر ، الذي تزعمته فيما بعد وحملت ألوته وقادت جحافله . ومعنى ذلك أن هذا الوطن العربي الكبير ، الممتد من سيف بحر الظلمات الى شواطئ الخليج العربي ومن سفوح طوروس الى مياه المحيط الهندي ، ما كان يكون وطناً عربياً لولا الهجرة، ولكان هذا الوطن اقتصر على ما يعف عنه الفرس والروم ، والأحباش أيضاً ، من شبه الجزيرة العربية، ولكانت الأمة العربية اليوم ، اذا أبقت عليها أحداث الزمن وتقلبات الأيام ، بقايا قبائل بادية متوحشة نافرة ، كالهنود الحمر في أمريكا ، أو كقبائل العجر المتفرقة في شتى أقطار الأرض .

فكل عربي في هذا الكون العربي الفسيح اليوم ، مخلص لعروبه معتز بالانتماء اليها فخور بأمجادها ، جدير بأن يذكر أنه لولا الهجرة لم يكن عربياً ، وحري ، بعد ذلك ، أن يعطي ذكراها ما تستحقه من تقديس واعظام .

ولنتصور قريشاً ، مرة ثالثة ، نجحت في منع الرسول من الهجرة ، وحالت بذلك دون انتشار الاسلام والعروبة في أقطار الأرض ، فماذا كانت تكون النتائج بالنسبة للحضارة العالمية يا ترى ؟؟

المعروف الثابت أن شعلة الثقافة ، اذ ذاك، كانت تتنازعها هوج الرياح ، وأن منار الحضارة الانسانية والعالمية كان مهدداً بالخبوء والانطفاء ، وأنه لم يكن لهذا ولا لتلك من ملجأ الا في أمة فتية ناهضة متوقدة الذهن مفتولة السواعد . ولم تكن هذه الشروط متحققة في أمتي الفرس والروم اللتين كانتا تتنازعان السيطرة على العالم في ذلك الحين ، ولكن اسلام العرب واتحادهم جميعاً تحت لواء هاديهم وأصحابه من بعده ، ونهضتهم تلك النهضة الجبارة ، كل ذلك جعل منهم الأمة المؤهلة لحماية شعلة الثقافة من عصف تلك الرياح الهوج ، وصون منار الحضارة الانسانية من أن ينطفئ وينهار .

ولقد قامت الأمة العربية بهذه المهمة على أتم وجه ، فحفظت تراث الانسانية ورعته ، وغذته بفيض عقولها ونسبته، وقطعت به أشواطاً بعيدة في مضمار التقدم والارتقاء لم يكن متاحاً

لغيرها أن تقطعها في تلك الحقبة من الزمان . ثم أسلمته الى من وليها من الأمم ، تراثاً قيماً ما تزال آثاره بادية في الحضارة العالمية حتى يومنا هذا ، لا يستطيع نكرانها أو الحط من قيمتها الا شعوبي يأكل الحقد شغاف قلبه، أو جاهل مخدوع أضله التقليد الأعمى أو بهره البهرج الزائف .

فكل مثقف ومتحضر في هذا الكون الفسيح ، مخلص للثقافة الصحيحة والحضارة الحق ، معتر بالانصاف بهما ، جدير بأن يذكر أنه لولا الهجرة المحمدية وما أنتجت من انتشار العروبة والاسلام لم يكن مثقفاً ولا متحضراً ، أو أن ثقافته وحضارته لم تكونا في مستواهما الحالي ، على الأقل ، وحرى ، بعد ذلك ، أن يعطي ذكراها ما تستحقه من تقدير واحترام .

أيها السادة :

أتراني أجبت عن السؤال الذي طرحته على نفسي الاجابة الصحيحة أو المعقولة على الأقل؟؟ أمّا أنا فأزعم أن قد فعلت . وهذا ما يحفزني على أن أقول لصديقي المثقف المتحضر من غير العرب والمسلمين : مهلاً يا صديقي ولا تتهمني بالتعصب الديني أو العرقي لاحتفالي بهذه الذكرى ، فان لك منها نصيباً وافياً ، ومن حق الوفاء عليك أن تشاركني الاحتفال بها . وأن أقول لأخي العربي غير المسلم : مهلاً يا أخي العربي ولا ترمني بالتعصب الديني لاحتفالي بهذه الذكرى ، فان لك منها - كعربي أسهم أجداده في بناء حضارة أمتهم - النصيب الأوفى ، وجدير بك أن تشاركني الاحتفال بها. وأن أقول لأخي المسلم ، أياً كان موطنه أو لسانه : مهلاً يا أخي ولا تقذفني بالعنصرية ، فأنت لولا الهجرة المحمدية ما أدري كيف كنت تكون اليوم ، فمن شكر النعمة عليك أن تشاركني الاحتفال بذكراها . وأن أقول لأخي العربي المسلم المثقف المتحضر : مهلاً يا أخي ولا تلمزني بالرجعية والجمود لاحتفالي بهذه الذكرى فان لك فيها كل الفخر كعربي مسلم مثقف متحضر، وان لها عليك كل الفضل كعربي مسلم مثقف متحضر أيضاً ، فهلم اليّ ، أو أدعني اليك ، تتعاون على احيائها والاستفادة من مغزاها وايفائها ما تستحقه من تقديس واعظام .

أراك يا أخي العربي - مسلماً وغير مسلم - تحتفل بذكريات لا تربطك بها الا رابطة الاعجاب بها أو بأهلها ، وتزعم لي أن الحق يقضي علينا بأن نعرف الفضل لذويه ، وأن لا نكر أمجاد غيرنا من الأمم ، وأن لا نبخس الناس أشياءهم ... وأنا أشاركك هذا كله يا أخي ... ولكنني أسأل ضميرك الحي : هل يقضي علينا الحق أن نزدري فضل أمتنا

لنعرف الفضل للآخرين ؟ وأن نكر أمجادنا أو نتكر لها في سبيل الاعتراف بأمجاد الآخرين ؟ وأن نبخس تاريخنا حقه لثلاث نبخس الناس أشياءهم ؟؟ وهل أجدى على الإنسانية أن نخدمها حيارى مائعين قد بت ما بيننا وبين ماضيها بارادتنا ولم نستطع أن تتشمل وضع غيرنا من الأمم لأن طبيعة الحياة تأبى ذلك ، من أن نخدمها أمة واعية متماسكة تستطيع أن تسهم في ميدان النضال بسهم وأن تدلي ، في مجال الحجة والمقال ، برأي ؟؟ لا تقل لي : ذلك غير ممكن لأننا ، اليوم ، أمة متفسخة متناذرة . فأقول لك : ان هذا الجواب دليل على الكسل وعدم الثقة بالنفس ، رغم كل مظاهر النشاط التي تبديها . فالمعول الذي تحاول أن تهدم به مجتمعك المتفسخ البالي ، كما تزعم ، يكون أجدى وأنفع لو نقضت به ما تراكم على تراثك القومي العظيم من جهالة وظلم وشعوبية ، والمطر الذي تحمله لتقوم به بناء مجتمعك الحديث ، يكون أفعل وأكثر نفعاً لو استعملته في إحياء ذلك التراث وتنقيته وتسويته وإقامة مجتمعك الحديث على أسسه الراسخة . ولا عليك ، مع ذلك ، أن تستعير لبنائك الحديث لبنة أو بضع لبنات لا تجد ما يقوم مقامها في تراثك ، شريطة أن تحتفظ وتسويها حتى تلائم مجموع بنائك الحديث وتجانسه ، والا كانت كالرقعة في الثوب ، لا فقراً سترت ولا ذوقاً أرضت . ولا يشفع لها أن تكون من ديباج ، فانما هي رقعة مهما زوقت لها من أسماء .

قد تقول لي : ان تراثنا قائم على الدين ، والأديان روحية تدعو الى التواكل وتعتمد على المعجزات وتؤمن بالمغيبات ، وهذا ما لا يتلاءم مع تطورات الحضارة وما آلت اليه في القرن العشرين ...

وأنا أقول لك : ليس الاسلام كما يزعم لك الحاقدون الموتورون ، بل الطامعون الشرهون . وهذه حادثة الهجرة ، وحدها ، فادرسها دراسة صحيحة تخرج منها بالدليل القاطع على ما أقول .

لعلك لا تنكر أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يثق كل الثقة بوعد ربه أنه منجيه ومبلغه مأمنه ، وأنه لم يطمئن (أبا بكر) وهما في الغار جزافاً حين قال له : « لا تحزن ان الله معنا » . وحين سأله : « يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟؟ » . أجل انه لم يقل ذلك جزافاً بل هو كان مؤمناً به كل الايمان .

إذا كنت لا تنكر هذا ، فهات قل لي كيف أعدّ الرسول ، نفسه ، العدة لهذه الهجرة وكيف نفذها وكيف احتاط لنفسه وللمؤمنين بكل ما يقتضيه العزم والتدبير ويوجبه الحزم وحسن التقدير ؟؟ ألم يأمر أتباعه بالهجرة على خفية ، وأن يهاجروا فرادى أو في جماعات صغيرة ، لئلا يلتفتوا اقتباه خصومهم اليهم إذا ما خرجوا جماعة واحدة ، فيحولوا دون بغيتهم أو يبيدوهم جملة إذا أمكنتهم منهم فرصة وهم مجتمعون ؟؟ ألم يكتهم موعد هجرته حتى من صديقه وصديقه ورفيقه في رحلته (أبي بكر) ولم يكشف له عنه الا ساعة عزم على الرحيل ؟؟ ألم يأمر (علياً) أن ينام في فراشه مرتدياً برده الأخضر ليوهم محاصريه ومريدي قتله أنه ما يزال في قبضتهم ، ان كانوا ينظرون من الثقوب والخصاص فيرون في فراشه شخصاً مرتدياً برده المعروف فيحسبونه اياه ؟؟ ألم يعتمد الى تضليل مطارديه ، بتكبه طريق (يثرب) القاصد في شمال مكة ولجؤته الى (غار ثور) في أقصى جنوبها ؟؟ ألم يأمر راعي أغنام أبي بكر ، الذي كان يروح على الغار بغنمه ، بأن يقتفي بالغنم آثار أقدام عبدالله بن أبي بكر منصرفة من الغار ليطمس تلك الآثار ؟؟ ألم يمكث في الغار ثلاثة أيام حتى استيقن من يأس مطارديه منه ورجح خلو الطريق منهم وامكان نجاته من مطاردتهم ؟؟ ألم يطلب الى دليله أن يسلك به الى (يثرب) طريقاً غير مألوف ، مبالغة منه في الحذر والحيلة ؟؟ فعلام فعل ذلك كله وهو ، كما أسلفت ، واثق من وعد ربه له بالنجاة وبلوغ مأمنه ؟؟ ألم يكن من المنتظر أن يخرج تحت سمع قريش وبصرها متوكلاً على الله ، اذا كان التوكل كما يريد البعض أن يفصره ؟؟

لقد أجاب النبي نفسه عن هذا السؤال حين أناه أعرابي قائلاً : « يا رسول الله ! اني لتدركني الصلاة وأنا في الفلاة ، أفأعقل بعيري كيلا يشرد وأصلي ، أم أدعه متوكلاً على الله ؟؟ » فأجابه ، عليه السلام : « بل اعقل وتوكل » . هذا هو دستور العمل الديني في الاسلام أيها الشباب ، ملخصاً بكلمتين : (اعقل وتوكل) . أجل : خذ للأمور أهبتها ثم توكل على الله . فحذار مما يدسه عليكم خصومه اذ يصورونه دين تواكل وتسليم أعمى .

والثانية يا شباب ! هي فرية الاعتماد على المعجزات . أفلا ترون أنه كان ينتظر من النبي أن يسأل ربه أن يكفيه مشقة رحلة الهجرة فينقله بمعجزة من مكة الى المدينة ، وربه قادر على ذلك ، ولا سيما أن موضوع هذه المعجزة نبىء ورسوله ، وفيها نجاته أولاً وتوفير هذه المشقات عليه ثانياً وتوكيد لنبوته عند من لا يؤمنون الا بالمعجزات والخوارق من ناحية ثالثة . فعلام لم يسأل ربه هذه المعجزة ، وعلام فعل كل ما فعل من أسباب الحيلة والحذر ؟؟

لقد أجاب الله سبحانه عن هذا السؤال، في محكم كتابه ، حين اشترط المشركون على النبي لايمانهم برسالته أن يأتيهم بالمعجزات والخوارق ، فأوحى اليه : « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » . ثم أجاب الرسول، عليه السلام ، عن مثله في غزوة (تبوك) حين اشتد العطش بالجيش لفقدان الماء ، وأوجس المسلمون خيفة من سوء المصير ، حتى جادتهم السماء بمطر رواءهم وأنقذ حياتهم ، فقال بعضهم للرسول : « انها لمعجزة ! » وأجابه الرسول : « انها لسحابة مارة » . ومثلها حين كسفت الشمس يوم وفاة ولده الوحيد (ابراهيم) ، فقال ناس : « انها المعجزة ، فالشمس انما كسفت لموت ابن النبي » وقال لهم النبي : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله بالصلاة » .

ذلكم هو شأن المعجزة في الاسلام يا شباب ! فحذار مما يستهويكم به المشعوذون والممخرقون .

والثالثة يا شباب ! هي فرية الاليعان بالمغيبات . فاذا أريد بالمغيبات ما بعد الموت من نشر وحشر وثواب وعقاب وما الى ذلك ، فنعم . على أن هذا الايمان ناشئ عما أخبرنا به الله على لسان نبيه الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى . وذلك لأن العقل البشري ، مهما سما وارتقى ، لا يستطيع أن تتجاوز معرفته حدود هذا العالم المادي . أما اذا أريد بها معرفة الماضي والحاضر والمستقبل في الحياة الدنيا ، فلا ولا . وحجتنا في ذلك القرآن الكريم ، فان فيه آيات صريحة تنفي معرفة الانسان الغيب : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » و « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى الي » ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون »

أجل يا شباب العرب ! أفلا تتفكرون ؟؟ ان الرسول نفسه لا يعلم الغيب ، وانه يتبع ما يوحى اليه ، واذن فان كل ما يلوح أنه من الغيب فيما أثر وصح عنه ليس الا وحياً تنزل عليه . فحذار مما يفتريه الخصوم الحاقدون ، ولا يخذعنكم ما يهرف به المنجمون الدجالون والعرافون الخراصون .

أيها السادة :

ان الهجرة النبوية هي أروع حادثة في تاريخ الاسلام والعرب ، ولا أعالي • ولقد كان السابقون الأولون الى الاسلام ، من العرب ، يدركون معناها تمام الادراك ، ويفهمون مغزاها حق الفهم ، ولم يكونوا جاهلين أن في تاريخ الاسلام حوادث رائعة حاسمة جديرة بأن تعتبر مبدءاً للتاريخ الاسلامي، فهناك (فتح مكة) الذي أدى الى دخول العرب - في دين الله أفواجاً - ، وهناك (حجة الوداع) التي أكمل الله فيها للعرب دينهم وأتم عليهم نعمته حين رضي لهم الإسلام ديناً ، بل هناك (صلح الحديبية) ، وهو الحدث السياسي الرائع الذي كان أول الدرب الى (الفتح) وحجة الوداع • ولكن هذه الأحداث كلها ما كانت تكون لولا (الهجرة) فهي ، اذن ، الأولى بأن تكون مبدءاً للتاريخ الاسلامي • وهذا ما أجمعوا عليه • وها نحن نحتفل بذكرها كل عام •

على أنني أخشى أن يكون احتفالنا مجرد كلام نسقه وشعر نزوقه ، وأن لا يكون لنا من هذه الذكرى الجليلة عظة ، ولا من مغازيها عبرة ، ولا من معانيها فائدة • فالرسول عليه السلام لم يهاجر من بلده ليخلد الى الراحة وينعم بالدعة ، بل هو هاجر ليعمل على نشر الدعوة التي اختصه الله بنشرها ، فواجه الصعاب ولاقى الأهوال حتى تم له تحقيق ما بعثه الله لتحقيقه •

أفلسنا جديرين بأن نتخذ من هذه الذكرى حافزاً على العمل لبناء حياة كريمة نحن بها خلقاء ، وإقامة مجتمع حديث نحن به جديرون وعلى اقامته قادرون ؟؟ ولقد قلت، آنفياً ، لشبابنا الذين يدعون العمل على إقامة هذا المجتمع الحديث : أن لا ضير عليهم في أن يستعيروا لبنائهم الحديث لبنات لا يجدون في تراثهم القومي ما يقوم مقامها • • • وخشية أن يفهم هذا القول على غير حقيقته أو يقع خطأ فيستعيروا ما لا تصح فيه الاستعارة ولا يجوز التقليد ، أحببت أن نستفيد من حادثة هي من نتائج الهجرة • أحببت أن نعود الى غزوة (الأحزاب) ، يوم أَلَبَّ اليهود قريشاً وغطفان على حرب النبي في دار هجرته ، واستشار النبي أصحابه في الخطة التي يواجهون بها الغازين ، فأشار (سلمان الفارسي) بحفر خندق حول المدينة يتعذر على المهاجمين اقتحامه • فما يتردد الرسول في قبول المشورة ، ويأمر أصحابه بالشروع فوراً في حفر الخندق، ويروح يشاركونهم العمل في الحفر ، تشجيعاً لهم وحفزاً لهمهم ، حتى ينجزوه في أقصر مدة ، ما يمنعه من ذلك أن هذه الطريقة الدفاعية في الحرب

أعجبية لا عهد للعرب بها . ذلك أنها لا تمس عقيدة ولا تناقض خلقاً عربياً أصيلاً ، بل لعلها تدخل في عموم الأمر الإلهي : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . بينما نحن نعرف أنه كان يقول لأصحابه ، اذ يقومون تعظيماً له حين يقبل عليهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » . ذلك أن هذه الطريقة في السلوك أعجبية لا يسيغها الخلق العربي الأصيل .

أيها السادة :

لعلنا نجد في هذا المثال الواحد من حياة الرسول الحافلة بالأمثلة والدروس ، ما ينير سبيلنا ويسدد خطانا في حياتنا الحاضرة . فنحن قد أعطينا الغرب أيام كنا - فملك - ، فماذا علينا لو أخذنا منه اليوم ونحن - نحتاج - ؟؟ وقد علمنا هادينا ما نأخذ وكيف نأخذ : نأخذ ما لا يمس عقيدة ولا يناقض خلقاً عربياً أصيلاً ، نأخذ (الخدق) بكل ما يعنيه من أسلوب حرب ووسيلة دفاع ، وما يرمز إليه من آلة عمل وطرق إنتاج . نأخذ ما يسمونه اليوم (تكنولوجيا) بكل فروعها وشتى أنواعها ومختلف ألوانها . على أن لا نأخذها - زبائن مستهلكين - ولا عمالاً في - ورشات - تحويل أو تجميع ، فهذا معناه (تعبية عمياء) وهي الشكل الجديد للاستعمار . بل نأخذها صناعة كاملة منتجة تديرها أيدينا ، وهي قادرة ، وتسيّرنا عقولنا ، وهي وفيرة - يعرفها الغرب فيغيرها بالهجرة إليه بما يوفره لها من وسائل بحث وميادين عمل ، لا حباً بها ، بل استغلالاً لكفاءاتها وتخليتها لأوطانها منها - وتمولها ثروات الطائفة ، وتغذيها أرضنا الطيبة الواسعة بما تختزنه من الفلز المعدنية الثمينة والثروات الطبيعية الهائلة التي يتمنى اليابانيون لو أن لهم جزءاً ضئيلاً منها .

وعلى ذكر اليابانيين ، أجدني مسوقاً الى مقارنة بيننا وبينهم - لما يجمعنا من الانتساب الى الشرق المحروم من موهبة الخلق والابداع فيما يزعمه الغريون - فلا أراهم يفوقونا ذكاءً ولا يذوقنا قدرة على العمل ولا كانوا في مطلع نهضتهم أوفر ثراءً منا الآن . ولكنهم كانوا أمة واحدة تجمعها دولة واحدة تظلمها راية واحدة . بينما نرى مع بالغ الأسى والأسف ، من حال أمتنا الواحدة اليوم ، ما أستعفيكم من شرحه وتفصيله فهو ظاهر لكل عين غني عن أي شرح ، ولكني أسألكم : ألا ترون معي أن الوحدة العربية الشاملة هي الشرط الأول اللازم للازب لنجاح أمتنا اليوم ، بل لنجاتها ؟؟؟ ففيها تتلاقح العقول وتتضافر

السواعد وتتكامل ثروات الأرض وخزائنها الدفينة وتتلاحم الطاقات لمصارعة الأعداء
المتربصين ومنافسة الأقوياء المستغلين وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

• وبحسبي هذه الإشارة ، فاني لأخشى أن يقودني الاسهاب الى تخوم - السياسة - وما
أنا منها في شيء . ولأعد الى وصل ما انقطع من حديث الأخذ عن الغرب ، وأحسبني فرغت من
حديث فنون الحرب وشؤون الصناعة والاتاج ، وأشرفت على نظم الحكم والادارة وأنماط
الحياة الاجتماعية ، وهذه كلها كان لنا منها مبادئ ونظم ونظريات وتطبيقات كانت كافية
وافية لأزمانها ، ولكن طبيعة التغير والتطور التي تحكمها تبعاً لتغير الظروف وتقدم
العلوم والفنون ، تجعلنا بحاجة الى اعادة النظر فيها والى الأخذ عن الغرب ما نحتاجه
منها . وهنا أعود الى ما سميتُه آنفاً - نحناً وتسوية - حتى يلائم الجديد المستعار ما لنا
من قديم التراث ، ولا يبقى كالرقعة في الثوب ولو كانت من ديباج .

وتبقى الأخلاق والمثل العليا وما اليها من أنماط السلوك ، وهذه من مميزات الأمم
الفارقة ، وخصائصها الخلقية التي تستعصي على الاستعارة والتقليد . وان لنا منها كنوزاً
تنتظر من يزيل عنها ركام الجهل والتشويه والتزييف والتحريف ، ويومئذ لا نحتاج الى
استعارة شيء منها أو تقليده .

فالله نسأل أن يوفق العاملين منا في هذا السبيل ، وأن يهدينا وإياهم الصراط المستقيم ،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رضا صافي
حمص

★ ★ ★